ملاحظات عن مصر

كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة
في القرنين ٦ و ٧ الهجرة [١٢ ١٣م]

نقد المصادر

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

تمهيد : الجغرافية العربية

وفق الأستاذ R. Blachère في كتابه « نخب من أهم الجغرافيين العرب في العصر الوسيط »[1] عند ما قسم الجغرافية العربية إلى نوعين كبيرين : أولهما الجغرافية الرياضية وتضم فرعين هما : علم الأطوال والعروض ، وعلم تقويم البلدان . وثانيهما الجغرافية الأدبية أو الوصفية وتشتمل على فرعين هما : علم المسالك والممالك ، وعلم عجائب البلدان .

وشرح بلاشير بعد ذلك المراحل التي اتبعتها الجغرافية العربية في تطورها ، فذكر أنها بدأت — كما بدأت عند الشعوب القديمة الأخرى — وهي وثيقة الصلة بالتاريخ . ثم بين كيف وتحت تأثير أي ظروف تمكنت من الانفصال عن التاريخ — انفصالا غير تام على كل حال .

نشأت الجغرافية العربية أول ما نشأت (آخر القرن ٣/٩) لمساعدة الكتاب وأصحاب الدواوين أي لخدمة صناعة الكتابة ، وذلك بظهور كتب ابن خرداذبه وابن رسته وقدامة [2] ، أو لاستعمال عامة الناس وذلك بظهور كتابي الجاحظ وابن الفقيه[3].

---

(١) Extraits des principaux géographes arabes du moyen âge. Paris. 1932.

(٢) ابن خرداذبه (توفى ٢٧٢ / ٨٨٥) ، كتاب المسالك والممالك ، طبعة (DE GOEJE) ، ليدن ، ١٨٨٩ (أول كتاب ليست له بالتاريخ الا علاقة ضعيفة ، فهو يهتم بشكل العالم الطبيعي بصفة خاصة) ؛ وابن رسته (توفى بعد ٢٩٠/٩٠٣) ، كتابه الاعلاق النفيسة ، طبعة (DE GOEJE) ليدن ، ١٨٩١ (عرض لرسم العالم ولو أنه يهتم بالعجائب والغرائب) ؛ وابو الفرج قدامه بن جعفر (توفى ٣٢٠/٩٣٢) ، كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، طبعة ليدن ، ١٨٨٩ (مع ابن خرداذبه) ويتكلم عن الموظفين والمحاسبين والاتاوات ؛ انظر : R. Blachère , Extraits ... pp. 17, 31, 53.

(٣) الجاحظ (توفى ٢٥٤ / ٨٦٩) ، كتاب البلدان ، مفقود ، ولكن طريقة الجاحظ —

وفى القرن التالى (٤ / ١٠) ازدهر هذا النوع البدائى تحت تأثير التيارات العلمية التى نشأت عن حركة الترجمة والنقل عن علوم اليونان وفارس والهند ، والتى يظهر أثرها واضحا فى الجغرافية الرياضية[1]. أما الجغرافيون الأدباء فقد تأثروا بهذه التيارات العلمية ، كما أنهم أفادوا من الرحالة ومن أسفارهم الخاصة فوائد جمة فضموا إلى معلوماتهم حقائق كثيرة عن أقاليم العالم المختلفة أكثر جدية وأكثر عمقا . وأدى هذا إلى ازدهار نوعين من المؤلفات الجغرافية ، وهى كتب الرحلات [2] وكتب المسالك والممالك .

فبعد أن كان مؤلفو المختصرات الأولى يعتمدون فى تصنيف كتبهم على الروايات والقصص الشعبية وأخبار « الفولكلور » مما دون سابقا ومما يروى شفاها ،[3] فإنه لم يكد القرن الـ ٣ / ٩ يشرف على نهايته حتى بدأ الجغرافيون العرب — أو بعضهم على الأقل — يجوبون أنحاء العالم ويتعرفون بأنفسهم على أحوال البلاد . وخير مثل لهؤلاء : اليعقوبى والاصطخرى وابن حوقل والمقدسى[3].

- معروفة ويمكن القول أن محتوياته لن تكون إلا استطرادا وخروجا عن الموضوعات الجغرافية وهذا ماتؤكده المقتبسات التى أخذها عنه المتأخرون ؛ ابن الفقيه (توفى بعد ٢٩٠ / ٩٠٣) ، كتاب البلدان ، طبعة De Goeje ، ليدن ، ١٨٨٥ . ينقل كثيراً عن الجاحظ حتى أنه أخذ عنه عنوان الكتاب (انظر المقدسى — طبعة De Goeje ص ٢٤١ — الذى يلاحظ ذلك) ، ويضمنه كثيراً من الخرافات والمعتقدات التى تعبر عن التصورات الشعبية الجغرافية فى ذلك الحين ، ولا يحتوى على قوائم بالمسالك والممالك أو نظريات بطليوس . انظر R. Blachère, Extraits .. p.67 Sqq.70)

(١) أنظر G. Marçais, Le monde oriental de 395 à 1081, Paris, 1944, p. 374

(٢) يلاحظ أن مؤلفى أخبار الأسفار هذه أرادوا أن يظهروا بمظهر العلماء وليس بمظهر المسلين : ابن فضلان (أوائل القرن ٤/١٠) ، يتكلم عن خواص وعجائب البلدان ؛ بزرج بن شهريار (نهاية القرن ٤ / ١٠) يتكلم على عجائب الحيوان والظواهر الغريبة ، وغرائب المشرق الأقصى وعن مغامرات مدهشة ؛ انظر R. Blachère, Extraits .. pp. 91, 92, 94, 100, 101, 103, 104 ؛ وانظر مقال T. W. Arnold تحت عنوان Arab Travellers and Merchants فى كتاب Travel and Travellers of Mediaeval Times نشر A.P. Newton بمقدمة س ٩٥ هامش ٣ وص ٩٦ هامش ٢ .

(٣) هنا تنبغى الاشارة الى صاحب البريد وكان تحت اشرافه الطرق (المسالك) حيث تتداول فى محطاتها أخبار الأقاليم والأوامر الصادرة من العاصمة وأخبار المؤن اللازمة لحياة البلاد والأموال والجباية الداخلة إلى بيت المال ؛ انظر G. Marçais, Le monde oriental de 395 à 1081, coll. Hist. Générale, Paris, 1944, p. 349. ؛ (ابن خرداذبه نفسه كان « صاحب البريد » نفس المرجع ص ٣٧٤) .

(٣) اليعقوبى (توفى بعد ٢٧٨ / ٩٩١) ، كتاب البلدان ، طبعة De Goeje ، ليدن ، ١٨٩١ (مع ابن رسته) يأتى بمعلومات جديدة عن المغرب ، ويبدأ بالعراق لأنها وسط الدنيا ،

وإلى هنا كانت الجغرافية الوصفية ناقصة بالنسبة إلى المغرب والأندلس ويرجع الفضل فى سد هذا الفراغ إلى الجغرافيين المغاربة مثل البكرى والأدريسى[1]، ومنهجها هو منهج ابن خرداذبه .

وإلى جانب هذين النوعين بلغ النوع العام الذى بدأه الجاحظ أو ابن الفقيه درجة النضج مع اختلاف هام وهو أن الكتاب الجدد وأن قصدوا تعميم علمهم ونشر ثقافتهم فإنهم لم يصلوا إلى تحقيق هدفهم هذا عن طريق التسلية ، لأنهم كانوا يكتبون علمهم ويقدمونه إلى جمهور جاد مثقف لا الى جمهور من الهواة . ويبدو هذا واضحا إذا عرفنا أن هذا النوع من الكتاب قد تشبعوا بكتب بطليوس وماريتوس[2] وأنهم أخذوا عن كتب علماء الفلك من الأغريق والعرب ، كما عرفوا كتب البحارة والرحالة وتثقفوا ثقافة واسعة شملت كل علوم ذلك العصر ؛ وخير مثل لهم : المسعودى ثم البيرونى[3] .

- الاصطخرى (توفى ٣٤٠/٩٥١) ، كتاب صور الأقاليم والمسالك والممالك ، طبعة De Goeje ، ليدن ١٨٧٠ ؛ ابن حوقل (توفى ٣٦٧/٩٧٧) ، كتاب المسالك والممالك ، طبعة De Goeje ، ليدن ١٨٧٣ المقدسى (توفى بعد ٣٧٨/٩٨٨) ، أحسن التقسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة De Goeje ، ليدن ١٨٧٧ ؛ وهو يعتبر نموذجا لهذا النوع ؛ أنظر R. Blachère, Extraits .. pp. 110, 112, 116, sq

(١) البكرى (أندلسى توفى ٤٨٧/١٠٩٤) المسالك والممالك ، الجزء الخاص بالمغرب منشور بعرفة De Slane تحت عنوان Description de l'Afrique, Septentrionale, Alger, 1857 ؛ الادريسى (توفى ٥٦٠/١١٦٦) ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (معروف باسم كتاب رجار) طبعة De Goeje, Dutch ، ليدن ، ١٨٦٦ . ويحتوى على مصطلحات جغرافية وطرق مواصلات فهو مختصر لاستعمال التجار . ويختلف فى طريقة عرضه عن البكرى إذ يأخذ بتقسيم العالم الى سبعة أقاليم . وهو فى تفصيلاته يذكر بالاصطخرى وابن حوقل والبكرى . أنظر R. Blachère, Extraits .. pp. 113, 184, 185, 190, 191.

(٢) جغرافى معاصر لبطليوس — القرن الثانى الميلادى — ترجمت جغرافيته الى العربية فى القرن الثالث الهجرى .

(٣) المسعودى (توفى ٣٤٥/٩٥٦) . قام برحلات فى فارس والهند والصين (٣٠٣/٩١٥) وفى فلسطين (٣٣٧/٩٤٣) ثم فى مصر حيث توفى يوجد جزء من تواليفه المديدة مثل مروج الذهب ، نشر وترجمة C. Barbier de Meynard, Paris, 1861 وكتاب التنبيه والاشراف ، نشر De Goeje ، ليدن ١٨٩٤ ؛ ومنهج المسعودى هو الا يترك أية معلومات جمعها ؛ والأثر اليونانى واضح فى كتبه وخاصة أثر بطليوس كما يذكر كتب ارسطاليس (كتاب الآثار العلوية وكتاب السماء والعالم اللذين ترجما الى العربية فى القرن الـ ٣/٩) ؛ البيرونى (توفى ٤٣٠/١٠٤٨) =

وتأتى بعد ذلك المرحلة الأخيرة من مراحل تطور هذه الأنواع وذلك فى نهاية القرن الـ٦ / ١٢ وما تلاه . فى هذه المرحلة انكمش النشاط العلمى عند العرب واختفى نوع المسالك والممالك فى القرن الـ ٧ / ١٣ أو كاد . أما النوع العام فلم يظهر منذ القرن الـ ٥ / ١١ بالشكل الذى أخرجه المسعودى .

ومنذ نهاية القرن الـ٦ / ١٢ وقفت التيارات والمؤثرات العلمية لليونان وفارس والهند وكذلك آثار الرحالة والمستكشفين عند مطالب العصر كما كان الحال عند نشأة الجغرافية الأدبية . فالكتاب من الجغرافيين لم يهتموا باكتشاف آفاق جديدة لمعاصريهم بل عملوا على امدادهم بمصنفات كاملة ، حسنة الترتيب ، سهلة الاستعمال . هذه الظاهرة تجلت بأوضح صورها فى المعاجم الجغرافية وخير مثل لها معاجم البكرى والزمخشرى وياقوت والقزوينى [1] . أما عن كتب صورة الأرض والجغرافية العامة فقد أصبح مؤلفوها اخصائيين يهتمون بكل الأحداث على سطح الأرض ، وهم فى نفس الوقت فلكيون وجغرافيون وخبراء فى المعادن والنباتات والحيوان وحياة الشعوب ، وبذلك يعتبرون متممين لرسالة المسعودى [2]. وأخيرا يظهر نوع جديد من دوائر المعارف التاريخية الجغرافية : فنظرا للتقدم الكبير الذى حققته الادارة المملوكية بمصر والشام كان من الضرورى نشوء أدب خاص

: وله كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية ثم تاريخ الهند الذى ألفه عندما سار مع جيوش محمود الغزنوى الى الهند ويحتوى على التاريخ والجغرافية والأخلاق والمعتقدات والفنون الخ . انظر R. Blachère, Extraits .. pp. 201, 203, 233, 234

(١) أول هذه المعاجم هو مصنفه البكرى (توفى ٤٨٧ / ١٠٩٤) ، معجم ما استعجم ، نشر Wustenfeld, Göttingen, 1876, 2 vols. ، وهدفه تصحيح نطق الأسماء الجغرافية المشكوك فيها ؛ الزمخشرى (توفى ٥٣٨ / ١١٤٣) ، كتاب الجبال والأمكنة والمياه ؛ معجم البلدان لياقوت (توفى ٦٨٢ / ١٢٨٣) ، نشر Wustenfeld, Leipzig, 1866, 6 vols ، وهو يعتبر النموذج لهذ النوع . وله مختصر معروف باسم مراصد الاطلاع ، نشر Jeynboll, Leyde, 1850-1854 ؛ القزوينى (توفى ٦٨٢ / ١٢٨٣) ، كتاب عجائب المخلوقات ، نشر Wüstenfeld, Göttingen, 1849 ، كتبه سنة ٦٦١ / ١٢٦٣ ثم أعاد كتابته مطولا تحت عنوان : آثار البلاد وأخبار العباد ، وهو يقسم العالم الى ثمانيه السبعة وعلى ذلك فهو أصعب استعمالا من معجم ياقوت . انظر R. Blachère, Extraits .. pp. 230, 231, 237, 254, 264.

(٢) معجم القزوينى يعتبر أهم متن ، وهو عبارة عن اقتباسات من المؤلفين السابقين (انظر الهامش السابق) ؛ أبو الفدا (توفى ٧٣٢ / ١٣٣١) ، تقويم البلدان ، نشر De Slane et Reinaud, Paris, 1840 ؛ أنظر R. Blachère, Extraits .. pp. 276, 277, 278, 280 sq.

يهدف إلى خدمة كتاب الدواوين ، ويشبه فى روحه ذلك الأدب الذى عالجه ابن خرداذبه وابن رسته وقدامه قبل ذلك بأكثر من ثلاثة قرون . هكذا ظهرت كتب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى المصرى (توفى ٧٤٣ / ١٣٣٢) ، والتعريف بالمصطلح الشريف ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (توفى ٧٤٨ / ١٣٤٨) ؛ وأخيرا موسوعة صبح الأعشى فى صناعة الانشا للقلقشندى (توفى ٨٢١/١٤١٨) [١].

أما عن النوع المعروف بالرحلة فإنه لم يظهر — بمعناه المفهوم الآن — إلا فى أواخر القرن الـ ٦ / ١٢ . وعلى عكس كل الأنواع السابقة المشرقية الأصل ظهر نوع الرحلة فى المغرب . وأول من فكر فى تسجيل أحاسيسه أثناء رحلة الحج وتدوين يوميات على مشاهداته فى المشرق هو ابن جبير الأندلسى (توفى ٦١٤/١٢١٧)[٢]. ثم أصبحت رحلة ابن جبير هى النموذج الذى سعى مواطنوه من المغاربة إلى تقليده والسير على منواله حتى أصبح هذا النوع من كتب الرحلات شبه احتكار لهم . ففى سنة ٦٨٨ / ١٢٨٩ أى بعد حوالى قرن قام العبدرى برحلته إلى الحجاز عن طريق شمال افريقية ومصر[٣] . وفى سنة ٧٣٦ / ١٣٣٦ قام البلوى وهو اندلسى من مدينة قنتورية برحلته إلى الحجاز عن طريق المغرب ومصر وهو يقلد سابقيه — العبدرى وابن جبير — من ناحية الاسلوب المنمق المسجوع ومن ناحية الموضوع [٤]. وفى سنة ٧٢٥ / ١٣٢٥ تبدأ رحلة ابن بطوطة التى كتبها ابن جزى بمدينة فاس بعد سنة ٧٥٠/١٣٤٩[٣] والتى ينقل فيها عن ابن جبير والعبدرى .

دور المغرب

مما تقدم نرى أن المغرب قام بدور هام فى تدعيم الجغرافية العربية وامدادها بالمعلومات المفصلة عن شمال افريقية بفضل البكرى والادريسى اللذين سدا هذه الثغرة فى علم المسالك والممالك . ونستطيع أن نضيف الى كتب هذين العالمين

(١) أنظر R. Blachère, Extraits .., pp. 299 sq.

(٢) ابن جبير The travels of Ibn Jubair, éd. De Goeje, Leyden, 1907

(٣) مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢٨٢ .

(٤) مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢٨٦ .

(٣) ابن بطوطة Voyages d' Ibn Batoûta, éd. trad. C. Defrémenert et le Dr B. R. Sanguinette. Paris, 1853

كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار[1] وهو كتاب ألفه مراكشى مجهول الاسم، ولعله كان كاتبا لثالث خلفاء الموحدين المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، فمن الثابت أنه ألفه حوالى سنة ٥٨٧/١١٩١ . وهذا الكتاب فى ترتيبه أشبه برحلة العودة من الحجاز، إذ يبدأ بوصف مكة والمدينة وصفا دقيقا يختلف عما كتبه سابقوه مثل ابن رسته وغيره ثم يصف مصر والمغرب . وهو فيما يختص بمصر والمغرب ينقل عن كتاب المسالك والممالك للبكرى الذى لم يبق لنا منه إلا قطع قليلة عن مصر لم تزل مخطوطة[2] ؛ ويضيف إليها بعض معلوماته الشخصية .

هذا إلى جانب فضل المغرب فى ابتكار نوع الرحلة الحجازية بظهور كتب ابن جبير وتابعيه . وهنا يحسن أن نسجل ملاحظة تتلخص فى أن هؤلاء الكتاب يكتبون على عهد الموحدين أو خلفائهم بالمغرب — عدا البكرى الذى يكتب على عهد المرابطين — أى فى الفترة التى توحد خلالها المغرب جميعا واستقل نهائيا عن المشرق . والتى بدأ يسجل فيها انتصارات سياسية وعسكرية باهرة هيأت له الرخاء المادى وحققت قيام حركة علمية وفكرية قوية ظهر أثرها فى الجغرافية كما ظهر فى علوم الدين والفلسفة وفى العمارة . ورغم القطيعة السياسية بين المغرب والمشرق فإن هذا لم يمنع المغاربة من الرحلة إلى المشرق وخاصة للقيام بفريضة الحج عن طريق مصر ذهابا وإيابا .

وكان من نتيجة هذا أن مصر لم تكن بالبلد الغريب أو المجهول بالنسبة للمغاربة بل هم قد زودوا المكتبة الجغرافية بالمعلومات المناسبة عن مصر كما رأوها . هذه المعلومات تكمل فى كثير من النواحى المعلومات الجغرافية المأخوذة عن المصنفات السابقة والروايات الشفهية .

مصر موضوع لعلم العجائب

أول ملاحظة تسترعى الانتباه هى أنه فيما يختص بمصر لم تستطع الجغرافية العربية التخلص من العنصر التاريخى ومن مادة العجائب . بل ربما غلب ذلك على

(١) مخطوط المكتبة الوطنية بباريز، القسم العربى، رقم ٢٢٢٥ .
(٢) مخطوط المكتبة الوطنية بباريز، القسم العربى، رقم ٢٢١٨ .

الناحية الجغرافية البحتة مما دعا Quatremère [1] إلى إهمال الجزء الخاص بمصر من جغرافية البكرى لأنه فى نظره لم يأت بجديد وتوجيه عنايته الى الجزء الخاص بالمغرب ، واعتقاده عند ما يعالج جغرافية مصر [2] أنه ربما يكون من تضييع وقت القراء وسوء استغلال صبرهم لو قدم لهم الأساطير غير المعقولة التى ليس لها سند تاريخى . أما De Sacy فيخشى « أن يأخذه ذلك السحر الذى يثيره اسم مصر ، ذلك البلد العظيم الغنى بآثار الماضى ، وأن يقلد أبا التاريخ عند ما يعلن أنه سيستطرد ويطيل الحديث عن مصر لأنها تحوى من العجائب أكثر مما يحويه أى بلد آخر ، وأنه ليس هناك اقليم يمكن أن يفضلها فى ذلك ، لما تضمه من آثار عظيمة منبثة فى كل مكان » [3] . تلك هى الحقيقة كما عرفها هيرودوت ، وليست المسألة مسألة خرافات لاتصدق أو أساطير لا سند لها من التاريخ ، إنما هو علم العجائب الوثيق الصلة بالتاريخ والذى بدأ مختلطا بالجغرافية الأدبية من أجل التسلية والترفيه ، ثم نما واستقل وأصبح فرعا من فروعها ألفت فيه الكتب والمصنفات .

ترتب على ذلك أن انقسمت جغرافية مصر إلى قسمين : الأول خاص بمصر القديمة ؛ والثانى خاص بمصر الإسلامية .

ولم يكن من الغريب أن ترجح كفة مصر القديمة على كفة مصر الاسلامية : فهى عندهم البلد الوحيد المذكور فى القرآن . وهى قد شهدت عددا من الأنبياء : مثل يوسف وموسى . كما أن ثروتها المعمارية القديمة كان من الواجب تأريخها . ولم يكن من الطبيعى أن نتنظر من هؤلاء المؤلفين تأريخا علميا صحيحا لهذه الآثار فهم كانوا بعد بعيدين عن عصر فك رموز الهيروغليفية . إلا أن ذلك لم يكن سببا لأن يترك أساتذة ذلك النوع من المؤرخين المسلمين الذين يؤرخون للعالم المعروف

(١) Notice d'un manuscrit arabe de la Bibliothèque du Roi Contenant la description de l'Afrique. Paris, 1831, p. 9.

(٢) Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et quelques contrées voisines. Paris. 1811, p. vi j.

(٣) Relation de l'Egypte par Abd al-Latif. Paris, 1810 p. xx. j. (ترجمة كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، لعبد اللطيف البغدادى — آخر القرن ٦ / ١٢) . وانظر ترجمة G. Rawlinson The history of Herodotus طبعة نيويورك سنة ١٩٤٧ الكتاب الثانى ص ٩٣ .

لهم تاريخ مصر القديمة . والحقيقة أنهم لم يعملوا خيالهم للبحث عن الحلول اللازمة لهذه المسائل بل عملوا على جمع التقاليد والقصص الشعبية التي كانت معروفة في ذلك الحين ، وحاولوا أن يبحثوا لها عن أساس تاريخي .

بدأ الكتاب الأوائل تاريخ مصر القديم بملف صغيرة ثم أتى المسعودي وارتحل في بلاد كثيرة إلى أن انتهى به المطاف إلى مصر حيث توفي . وفي مصر أخذ يجمع المعلومات المفصلة عن البلاد وعن المجتمع المصري قديما وحديثا : فهو يسأل القبط عن الفراعنة وعن قراءة النقوش القديمة ، ويدون ماقالوه في النيل والأهرام والبرابي (المعابد القديمة) [1] ، إلى جانب مانقله عن ابن عبد الحكم أقدم مؤرخي مصر الاسلامية المتوفى بالفسطاط سنة ٢٥٧ / ٨٧١ [2]. ومنهج المسعودي هو ألا يترك أية معلومات جمعها ثم يعرضها مختلطة دون مراعاة أي ترتيب مما يجعل كتابه صعب الاستعمال . وبعد المسعودي بنحو نصف قرن أي في أواخر القرن الرابع الهجري (حوالي سنة ١٠٠٠ م) جمع ابراهيم بن وصيف شاه [3] الفارسي الأصل والذي عاش في مدينة اخميم على مايظن كل هذه المعلومات التي كانت معروفة في مصر عن طريق الرواية الشفهية وعن طريق كتب القبط كما يؤكد في كثير من الأحيان . ولابد أنه استعان بما كتبه المسعودي ورتب المادة المجموعة في كتابه عن العجائب الذي يشبه أن يكون تاريخا علميا حتى نسبت إحدى مخطوطاته إلى المسعودي وأعطيت اسم كتابه المفقود « أخبار الزمان » [4]. وبعد حوالي قرن نقل البكري عن ابن وصيف شاه تاريخ مصر القديم [5] . وعن البكري نقل صاحب كتاب الاستبصار ، في أواخر القرن ٦ / ١٢ ، هذا الجزء [6].

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٦٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٤٠١٠ ، ٤١٤ .

(٢) فتوح مصر والمغرب والاندلس ، نشر H. Massé ، القاهرة ، ١٩١٤ .

(٣) الترجمة الفرنسية له تحت عنوان Carra de Vaux, L'Abrégé de Merveilles, Paris, 1898 انظر Orientalistische Litteratur Zeitung, Erster Jahrgang, 1898, 15 Mai 1898, p. 146 حيث حقق للمؤلف C. F. Seybold أن ابراهيم بن وصيف شاه يكتب حوالي سنة ١٠٠٠ بينما قال Carra de Vaux (ص XXXIII) أنه عاش في مصر في نهاية القرن ١١ / ١٢ م .

(٤) انظر ترجمة عجائب ابراهيم بن وصيف شاه Carra de Vaux, l'Abrégé des Merveilles, p. XXXVIII .

(٥) مخطوط باريز ، رقم ٢٢١٨ ، ص ١٢ — يسبقه جزء مفقود — الى ص ٤٤ .

(٦) مخطوط باريز ، رقم ٢٢٢٥ ، ص ١ — ١٧ ، إلى ١ — ٣٤ .

هكذا وصلتنا معلومات المسعودى التى فقدت مع كتبه الضائعة مثل أخبار الزمان والكتاب الأوسط والتى رفض أن يعيد تدوينها فى كتابه مروج الذهب كما يقول[1]. وهذا التاريخ ينقسم إلى مرحلتين يفصل بينهما الطوفان . أما عن كلمة مصر فهى عند هؤلاء المؤلفين اسم أول ملك نزل البلاد بعد الطوفان[2]. وفيما يتعلق بموضوع هذا التاريخ فهو عبارة عن سلسلة من الأساطير والخرافات الخيالية البديعة النسج الخاصة ببناء الأهرام والمدن القديمة والمعابد العتيقة . أما الملوك القدماء فمعظمهم طغاة كفرة أو فراعنة يعبدون البقر والنجوم ، وهم ظلمة يستعملون العلوم والحكمة لتحقيق مآربهم الأنانية ، ويحكمون بالارهاب والتخويف . وهم مابين فيلسوف وكيميائى وفلكى وساحر ممن يسخرون الناس والجان والذين يعرفون الماضى كما يلمون بعلم الغيب . وخلال ذلك وبعد الطوفان يأتى تاريخ الانبياء والقديسين . ويبدأ بنوح وتعمير البلاد على عهد مصر وابنه القبط ويمر سريعا بموسى وابراهيم ويستطرد أخيراً فيطيل الحديث عن يوسف . هذه الأساطير من الصعب التقريب بينها وبين روايات هيرودوت أو قوائم مانيتون (Manéthon) المؤرخ المصرى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد .

ويلتهى تاريخ مصر القديم بذكر قصة الفتح العربى لمصر ، وهى مأخوذة فى جملتها عن ابن عبد الحكم الذى ينقل عنه معظم الكتاب[3].

مصر فى كتب المسالك والممالك

ظهر علم العجائب — كما رأينا — للتسلية بينما كان ظهور نوع المسالك لخدمة أصحاب الدواوين : فموضوعه الجغرافية الوصفية أى وصف البلاد وصفا حقيقيا لمعرفة طرقها وثروتها الطبيعية وأخبار المؤن اللازمة لحياتها والأموال والجباية

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٧١ ، ٣٩٧ ، ٤١٣ .

(٢) نعتقد أن اسم مصر يحمل معناه العام أى الحضر أو البلد الكبير المتمدن ، وأن العرب أعطوها إياه بمعنى إنها البلد المتحضر دون غيرها من البلاد . أنظر معنى كلمة المصر عند المقدسى ، أحسن التقسيم ، ص ٧ .

(٣) فتوح مصر وللغرب والاندلس ، القاهرة ، ١٩١٤ ، ص ٤٥ وتابع ؛ انظر البكرى المخطوط ، ص ٤٤ — ٤٥ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ١ — ٣٤ — ١ — ٣٦ ؛ قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٨٩٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٨٨ وتابع ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٥ وتابع ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٦٢ وتابع .

الداخلة إلى بيت المال . ولكن الذى حدث هو أنه بدلا من أن يمدنا الكتاب بالمعلومات الدقيقة عن أحوال مصر ، التفتوا إلى غرائبها الأزلية التى أنتهم فى أغلب الأحيان وقائع حاضرها . فمصر من الناحية الطبيعية أيضا مليئة بكل ماهو عجيب : مثل النيل ومنطقة الفيوم ومدن الصعيد ومدن الدلتا ، إلى جانب أهرام الجيزة ومنار الاسكندرية . هكذا ظهرت مصر فى مسالك البكرى الذى يشبه أن يكون مختصرا مخصصا لاستعمال الكتاب بفضل أسلوبه الجاف وتفصيلاته الدقيقة وعنايته الخاصة بطرق المواصلات .

ووصف مصر بوجه عام عند هؤلاء الكتاب يتلخص فى انها عند الفيضان « درة بيضاء » وعند انحسار الماء وفترة البذر « مسكة سوداء » تفوح من أرضها رائحة عطرة ، وهى إذا كبر الزرع « زبرجدة خضراء » ، ثم هى أخيرا عند ما يصفر ويتناهى « سبيكة حمراء »[1].

والنيل من عجائب العالم : فهو مخالف لكل أنهار الدنيا إذ يجرى من الجنوب إلى الشمال ، ثم هو أطولها إذ لا يعرف له منبع من تحت جبل القمر وراء خط الاستواء وهو الوحيد الذى يسمى بحرا ويما[2]. ومن عجائبه أنه يوجد فيه التمساح وأعجوبة أخرى هى السمكة الرعادة التى تخدر يد من يلمسها[3]. وللنيل أعياد

(١) البكرى ، المخطوط ، ص ٧ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ٣٦ ؛ قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٣٥٧ والتنبيه والاشراف ، ص ٢١ .

(٢) البكرى ، مخطوط باريز ، ص ٨ ؛ الاستبصار ، مخطوط باريز ، ص ١ ـ ٥ ؛ كتاب الجغرافية ، مخطوط المتحف البريطانى ، رقم add 23, 743 ؛ قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٢٠٥ ، ٢١١ ؛ ج ٢ ص ٣٦١ ؛ ج ٦ ص ٢٧٣ . يلاحظ أن هذه المعلومات أصبحت تقليدية بدأ بها الجغرافيون الأوائل وتناقلها الكتاب حتى النهاية .

(٣) لم يلمس أحد من الكتاب السابقين واللاحقين الكلام عن التمساح والرعادة . وكان التمساح بالذات موضوع أدب خصب : فهو لا يقرب بعض البلدان مثل الفسطاط وانصنا ولا يضر فى نواحيها ، بينما هو أكثر ما يكون عدوانا بالشاطئ المقابل لانصنا فى قرية الاشمون (الاستبصار ، المخطوط ص ب ٣٦) . وكذلك بسردوس حتى قيل : احذر سردوس ولو كان الماء فى قادوس (المقدسى ص ٢٠٨) ؛ وبلغ الخوف منه الى أن قيل فى النيل :

أظهرت قبيل هجرا ومقلية ... إذ قيل لى انما التمساح فى النيل
فمن رأى النيل رأى العين من كثب ... فما أرى النيل إلا فى البواقيل

(المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٦ ص ٢٧٤) .

ومواسم منها عيد الصليب وهو عيد وفاء النيل صيفا وعيد الغطاس شتاء ويحتفل به أهل العاصمة احتفالا عظيما[1].

ومنطقة الفيوم هى الأخرى ، بفضل أعمال الرى الدائم وتوفر المياه فيها على مدار السنة ، أعجوبة من عجائب العالم يلبغى أن تكون معجزة ربانية حبا الله بها يوسف النبى[2]. فالفيوم قطر كبير فيه من القرى عدة ما فى قطر مصر ، وربما بلغ عددها ٣٦٠ قرية على عدد أيام السنة ، فإذا نقص النيل وغلا السعر بمصر مارت كل قرية منها مصر يوما . والفضل فى ذلك لسد اللاهون الذى ينظم ريها . والفيوم تشرب من ١٢ ذراعا بينما رى مصر من ١٦ ذراعا . وإذا زاد النيل عن ١٢ ذراعا احتفل بسد حجر اللاهون وأرسلت البشائر إلى العاصمة . وبينما تزرع مصر زرعة واحدة يزرع الفيوم مرتين فى العام ، وحاصلاته متنوعه مختلفة من القمح والشعير والأرز والفواكه الكثيرة والرطب .

وعند ذكر الفيوم تذكر بلد القيس أو القيسين التى سميت باسم قيس بن الحارث الذى بعثه عمرو بن العاص لاكتشاف الفيوم حسب رواية ابن عبد الحكم[3].

---

(١) البكرى ، المخطوط ، ص٩ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ب—١٦ ؛ قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥

(٢) تقول الأسطورة أنه عمرها فى ٩٠ يوما فلما رآها الملك قال هذا عمل ألف يوم فسميت الفيوم ، أو « لأن اخراجها الف دينار كل يوم » (البكرى ، المخطوط ، ص ٣٧ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ا— ٣٢ ، ا — ٤٠ ؛ قارن ابن عبد الحكم ، ص ١٢ — ١٣ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٩ — ٣٧٠ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٤١ وتابع) . وهذا التفسير غير صحيح إذ أثبت Quatremère (Memoires géog. et hist p. 391) أن كلمة فيوم قبطية ومعناها البحر .

(٣) الأجزاء الموجودة من البكرى غير كاملة وعلى ذلك يرجع الى كتاب الاستبصار ، المخطوط ص ا— ٣٢ ، ا— ٤٠ وتابع ؛ قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٧٠ ؛ (يذكر أنه ذكر كيف عمرها يوسف فى الكتاب الأوسط فاغنى ذلك عن اعادته فى هذا الكتاب) ، ج ٢ ص٣٨٤— ٣٨٥ ؛ هذه المدونات موجودة مبعثرة عند بقية الكتاب: اليعقوبى ، ص ٣٣١ ؛ ابن الفقيه ص ٦٧ ، ٧٤ ؛ الاصطخرى ، ص ٥٠ ، ٥٦ ؛ المقدسى ، ص ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٤١ ؛ ابن حوقل ، ص ٩٧ ؛ ابن وصيف شاه ترجمة Carra de Vaux ، ص ٢٥٤ ؛ الادريسى ص ٤٥ ، ٤٦ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ؛ معجم البلدان ، ج ٣ ص ٩٣٥ — ٩٣٦ .

أما عن نسبة القيس الى قيس بن الحارث كما تقول الرواية الاسلامية فان Quatremère أوضح أن هذه المدينة كانت موجودة بهذا الاسم قبل الفتح العربى : أنظر Memoires géog. et hist. p. 141 et suivante

إذا كانت الفيوم قد أثارت الاعجاب بثروتها الزراعية وغناها فإن الصعيد قد أثار إعجابهم أيضا لغناه وثروته الأثرية التى ضاعت فى غمار وصفها معالم المدن الحديثة وأوجه نشاط أهلها الاقتصادى والاجتماعى . وأسيوط معروفة بغناها الزراعى إذ هى بسيط من الأرض لو قطرت فيه قطرة فاضت على جميع نواحيه ، يبذر فيها جميع الحبوب فإذا اخضرت فلا يكون على الأرض بساط أعجب منه . وجانبها الشرقى قد اشتبكت فى رياضه الاشجار والكروم ، فلا تسمع فيه الكلام من كثرة أصوات الطيور . وهى أكثر بلاد الله قصب السكر وأطيب [1] . أما اخميم المدينة الأزلية فلا تعرف إلا ببرباها الذى تحدث فيه المعجزات ، وبذى النون المصرى الزاهد الاخميمى الأصل (متوفى سنة ٢٤٥/٨٥٩) ، الذى تخصص فى دراسة معبد المدينة القديم [2] . وأنصنا هى مدينة السحر فى زمن فرعون [3] . أما قوص فهى كبيرة أزلية قديمة بها آثار للأوائل ، بينها وبين أسوان غيران منحوتة فى الجبال بها قبور الأموات ، وبينها وبين أسوان معادن الذهب [4] ، وبالقرب منها معادن الزمرد الذى لا يوجد إلا هناك [5] . ومدينة قفط متوسطة أزلية بينها وبين قوص ٤ أميال

(١) البكرى ، المخطوط ، ص ١١ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ا — ١٥ ، ا — ٣٧

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ١٤ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ب — ٢٢ ، ب — ٣٦ ؛ قابل المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠١ ؛ المقدسى ، ص ٢٠٠ ؛ ياقوت ، ج ١ ص ١٦٥ ؛ ابن دقاق ، ص ٢٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣١ ، ٣٩ ؛ عن ذى النون المصرى ، انظر السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٩٣ ؛ L. Massignon. : Brockelmann. C, II. 82 . Passion d'al-Hallaj. t I, p. 192

(٣) الاستبصار ، المخطوط ، ص ا — ٣٧ ؛ قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠٤ ؛ انظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩ ، ٢٠٤ حيث ينقل ما كتبه البكرى ولا يوجد فى مخطوط باريز .

(٤) الاستبصار ، المخطوط ، ص ا — ٣٧ ؛ انظر اليعقوبى ، ص ٣٣٣ — ٣٣٤ ؛ ابن حوقل ، ص ١٠٧ ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ب — ٣٥ ، ا — ٣٦ ؛ الادريسى ، ص ٤٩ .

(٥) الاستبصار ، المخطوط ، ص ا — ٣٧ . مايتعلق بالزمرد مأخوذ عن المسعودى . انظر مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٣ وتابع ، والتنبيه ، ص ٢٢ ؛ وقارن المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٩٤ ، ١٩٧ .

وفيها بربى [1] . وأسوان آخر مدن مصر وهى ثغر لاتصالها بالنوبة وهم كفرة [2]. ومن أسوان الطريق إلى عيذاب التى يسلك منها إلى الحجاز وبلاد اليمن والهند [3].

وعلى عكس الصعيد لم تستحوذ الدلتا أو أسفل الأرض على اهتمام الجغرافيين لقلة آثارها وعجائبها ، إذ يمر بعضهم بها دون ذكر ، ويكتفى غيرهم بتعداد كورها ومدنها [4]. وإذا كان فيها مايستحق الذكر فهو مدينتا تنيس ودمياط بسبب شهرتهما كمركزين للنسيج الممتاز . فتنيس « وأكثر أهلها حاكة ، تحاك ثياب الشروب التى لايصنع مثلها فى الدنيا » . ومناسجها لاتكتفى باستعمال خيوط الغزل العادى ، إذ بلغت من الترف درجة استعمال خيوط المعادن الثمينة . وفيها كانت دور الطراز التى يصنع فيها « لصاحب مصر قميص لايدخل فيه من الغزل سداة ولحمة غير أوقيتين ونسج من الذهب ٤٠٠ دينار . والذى تبلغ القيمة فيه ١٠٠٠ دينار . وليس فى جميع الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو بساذج دون ذهب ١٠٠ دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط [5]» . إلى جانب ذلك عرف أهلها بصيد طير السمانى .

(١) الاستبصار ، المخطوط ، ص ا — ٢٧ ؛ قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٥٠ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٢ ؛ الادريسى ، ص ٤٨ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص١٥٢.

(٢) الاستبصار ، المخطوط ، ب—٣٧ ؛ قارن اليعقوبى ، ص ٣٣٤ ؛ ابن الفقيه ، ص ٦٠ ؛ المقدسى ، ص٢٠٠ ؛ ياقوت ، المعجم ، ج ١ ص ٢٦٩ .

(٣) الاستبصار ، المخطوط ، ص ب — ٢٧ ؛ قارن اليعقوبى ، ٣٣٥ ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ب — ٣٥ ؛ الادريسى ، ص ٥١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٩ .

(٤) ابن خرداذبه لايذكر عنها شيئا وكذلك ابن رسته وابن الفقيه وكذلك المسعودى فى كتبه الموجودة .

(٥) هذه المعلومات التى يوردها صاحب كتاب الاستبصار (المخطوط ، ص ب — ٣٨) مأخوذة عن المسعودى ولكنها ليست فى كتبه الموجودة تحت أيدينا ولا فى النتف الموجودة من مخطوط البكرى ، انظر المقريزى الذى ينسبها الى المسعودى (الخطط ج ١ ص ١٧٧) . وقارن اليعقوبى ، ص ٣٢٧ ؛ المقدسى ، ص ٢١٣ (يتكلم عن الثياب الشطوية — نسبة الى شطا من كور تنيس — التى لايمكن القبطى أن ينسج شيئا منها إلا بعد مايختم عليها بختم السلطان ولا أن تباع إلا على يد سماسرة قد عقدت عليهم وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته) ؛ ابن حوقل ، ص ١٠١ ، كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ب — ٤٠ ؛ الادريسى ، ص ١٥٠ ، ١٥٦ . انظر Maspéro (J) et Wiet (G), Mémoires de l'Institut du Caire, t. 36, p. 60 - 1

نلاحظ هنا أن صاحب الاستبصار لايكتفى بنقل ماكتبه المسعودى بل يمر بالقارىء عند ما يذكر أن بتنيس ودمياط نصارى هم الآن تحت الذمة ، فيذكر السنة التى يكتب فيها ويقول ونحن الآن فى سنة ٥٨٦ هـ/ ١١٩١ م . (عن صناعة النسيج فى دمياط وما جاورها انظر جمال الدين الشيال ، تحل تاريخ دمياط ، الاسكندرية ، ١٩٤٩ ص ٦٩ وما بعد) .

وكما هى العادة كان غنى المدينتين الساحليتين سببا فى نسج الأساطير حولها : فلقد كانتا من أغنى بلاد مصر زراعات وفواكه فيها الجنتان المذكور صاحبهما فى القرآن بأنه قال لصاحبه « أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » فطغى عليهما البحر وأصبحتا جزيرتين [1]. أما الفرما فتباهى بأنواع رطبها إذ تبلغ التمرة قنطارا وتزن ٢٠ درهما. ومدينة رشيد كبيرة على كثيب رمل عظيم وعلى ضفة النيل قرب البحر، وإذا هبت الريح الغربية ملأت عليهم سككهم وبيوتهم فلا يقدرون التصرف فى اسواقهم [2]. ذلك كان نصيب مصر الهزيل فى كتب المسالك والممالك حتى الوقت الذى بدأت تظهر فيه كتب الرحلة .

مصر كما وصفها أصحاب كتب الرحلة

لما كان هدف أصحاب الرحلة من المغاربة هو زيارة الأماكن المقدسة بالحجاز والتزود من علوم المشرق لم تكن إقامتهم تطول بمصر إلا فى مدينتيها الكبيرتين : الاسكندرية ، أول محطة كبيرة تلقاهم من جهة البحر أو الصحراء ؛ ثم القاهرة ، قصبة الديار ومركزها العلمى الممتاز وملتقى قافلة الحاج المصرى . ترتب على ذلك أن بقية مدن مصر لم تحظ منهم بكثير من العناية عدا ابن جبير الذى جعل طريق ذهابه فى النيل الى الصعيد وعيذاب قبل هزيمة الصليبيين وكسرهم فى الشام .

ونلاحظ أنه فيما يختص بقاعدة مصر — الفسطاط ثم القاهرة — لا يستغنى الجغرافيون من متقدمين ومتأخرين على اختلاف مناهجهم عن ايراد المعلومات التى أصبحت تقليدية من وصف عجائب منف وعين شمس القريبتين [3] ، ثم الهرمين

---

(١) الاستبصار، المخطوط ، ص ب — ٣٨ ؛ ابن وصيف شاه ترجمة Cairo de Vaux ، ص ٤١ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٧٤ ؛ الادريسى ، ص ١٥٦ .

(٢) الاستبصار ، المخطوط ، ص ا — ٣٩ .

(٣) كل منهما على بعد ٣ أو ٤ أميال من الفسطاط . منف هى العاصمة الفرعونية القديمة الأزلية وكانت دار مملكة الملوك القدماء ، بها دار فرعون . وعين شمس أزلية وهى مدينة فرعون بها الآثار الكثيرة والعجائب والنقوش ، شهيرة بدهن البلسان . البكرى ، المخطوط ، ص ٥٦ ؛ الاستبصار، المخطوط ، ص ب ٣٦ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣١ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٣ ؛ الاصطخرى ص ٥٤ ؛ المقدسى ، ص ٢١٠ ؛ ابن حوقل ، ص ١٠٦ ؛ الادريسى ، ص ١٤٥ ؛ عبد اللطيف، ص ١٠٦ ، ١١٦ .

وهما موضوع أدب خصب [1] وأبى الهول المكسور الأنف والشفتين [2].
والفسطاط نفسها « آهل من نيسابور وأجل من البصرة وأكبر من دمشق » [3] وهى شهيرة بناطحات سحابها — إذا جاز استعمال هذا المصطلح — فدورها كالمنائر يأتيها النور من وسطها ، وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ٨ طبقات وربما بلغ سكانها ٢٠٠ نفس [4]. وبها جامع عمرو الشهير ثم جامع ابن طولون . وفى الجزيرة التى بين الفسطاط والجيزة توجد دار الصناعة ومقياس النيل [5].

وأول ذكر عند الجغرافيين للقاهرة نجده فى مسالك ابن حوقل الداعية الفاطمى [6] ولكنها كانت فى بداية عهدها فاكتفى بالاشارة إليها وبأنها « مدينة

---

(١) تواردت معظم الكتاب أنها متساويان حجما فقياسها : ٤٠٠ ذراع طولا ، ٤٠٠ ذراع عرضا ، ٤٠٠ ذراع ارتفاعا . ومكتوب عليها بالخط « المسند » وهو خط القدماء (يخطىء البعض فيقول باليونانية : الاصطخرى ، ص ٤٨ ؛ ابن حوقل ، ص ١٠٠ ؛ المقدسى ، ص ٢١٠) . وهما « بليان من حجارة مرمر ورخام طول الحجر ١٠ أذرع وعرضه ١٠ أذرع ، والحجارة مهندمة لايلبن هندامها إلا الحاد البصر ولاتسمح بمرور الابرة بينها . هذا ولقد ذهب البعض إلى أن الحجارة متماسكة بصب الحديد مشدودة بالرصاص .

أما عن بانيها فالآراء مختلفة : فالكتاب يعرفون أنها من بناء الملوك الأقدمين قبل الطوفان وانها مقابر لهم . ولكن بعضهم يلمح الى وصف على انها الأهراء التى جمع فيها الطعام استعدادا لسنوات الجدب أو أنها طلسمات لمنع الرمل من أن يغير على العاصمة . وذهب البعض الى انها من بناء بطليوس باني منار الاسكندرية . وعن الثغرة التى يدخل منها الى الهرم الأكبر فيقال إن المأمون هو الذى أمر بفتحها عندما حضر الى مصر سنة ٢١٦ هـ . وتم ذلك خلال مغامرات مدهشة . البكرى ، المخطوط ، ص ١٢ ، الاسطبصار ، المخطوط ، ص ١ — ١٩ وتابع (مأخوذ عن المسعودى ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٧٩ وابن وصيف شاه ، ترجمة Carra de Vaux ، ص ١٧١ ، ٢١٠) ؛ قابل ابن خرداذبه ص ١٥٩ ؛ ابن رسته ، ص ٨٠ ، ١١٥ ؛ ابن الفقيه ، ص ٦٨ ؛ الاصطخرى ، ص ٥١ ؛ المسعودى ، التنبيه ، ص ١٩ ، المقدسى ، ٢١٠ ؛ ابن حوقل ، ص ٨٨ ، ١٠٠ الخ .

(٢) المقدسى ، ص ٢١٠ ؛ ابن جبير ، ص ٥٤ .

(٣) المقدسى ، ص ١٩٧ .

(٤) الاصطخرى ، ص ٤٨ ؛ المقدسى ، ص ١٩٨ ؛ ابن حوقل ، ص ٩٦ ؛ الادريسى ، ص ١٤١ ، عبد اللطيف ، ص ٢ [illegible].

(٥) البكرى ، المخطوط ، ٩ ، لاحظ البكرى تفصيلا دقيقا وهو أنه عند قياس ارتفاع النيل تحسب الى ١٢ ذراع الأول بحسب الذراع ٢٨ أصبعا وما زاد على ذلك بحسب الذراع ٢٤ أصبعا وهو طول الذراع المعتاد ص٨٠) ؛ المسعودى مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٦٦ ؛ الادريسى ، ص ١٤٤ ؛ ابن جبير ، ص ٥٤ .

(٦) ابن حوقل ، ص ٩٧ .

أجدها أبو الحسن جوهر فتى أمير المؤمنين ومصباح دولته » . ولم يضف المقدسي المعاصر له شيئا عنها [1] . وبعد قرن لم يزد البكرى إلا أنها على نحو ميلين من الفسطاط فى خرابة كانت مساكن لكتامة وغيرها وأن الحاكم الفاطمى بنى مسجدا عظيما فى الطريق ما بين الفسطاط والقاهرة مكان ٣ مشاهد كانت هناك . ويذكر كيف أن الحاكم حاول بالحيلة نقل جثة النبى الى هذا الجامع ولكنه فشل فى تدبيره [2].

والغريب أن المتأخرين من جغرافي القرن الـ ٦ والـ ٧ والـ ٨ للهجرة اكتفوا بالنقل ولم يضيفوا إلى هذه المعلومات كثيرا رغم الأحداث التى طرأت على كل من البلدين [3]. ويرجع الفضل إلى جغرافية الرحلة ، رحلة الحج ، فى سد هذه الثغرة واضافة معلومات جديدة لها قيمتها التاريخية والاجتماعية والأثرية .

قام ابن جبير مبتكر هذا النوع أو الذى أعطاه شكله النموذجى برحلته من الاندلس ووصل الى مصر فى أوائل عهد صلاح الدين (أواخر سنة ٥٧٨ / ١١٨٢) ، ودون ملاحظاته ومشاهداته فى البحر — أثناء رحلة المركب الجنوى الذى نقله من سبته الى الاسكندرية — وفى مصر ومكة والمدينة والشام .

ميزة ابن جبير تتلخص فى أنه قوى الملاحظة دقيق فى روايته ، لايكتفى بأخبار سابقيه إنما يتحرى الحقيقة بنفسه [4] . ففى الفسطاط يحدد مكان نزوله بفندق

---

(١) المقدسى ، ص ٢٠٠ .

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ٥٥ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ١ — ٢٦ (ينقل البكرى).

(٣) كتاب الجغرافية لكاتب اندلسى من القرن السادس الهجرى ، مخطوط المتحف البريطانى ، رقم ٢٥٠٧٤٣ . add لايذكر القاهرة . ويكتفى الادريسى بالحديث عن الفسطاط . وحتى ياقوت فى معجمه يستطرد استطرادا كبيرا عن الفسطاط (ج ٣ ص ٨٩٣ الى ٩٠٠) ويخص القاهرة بالقليل (ج ٤ ص ٢٢) ورغم عله بخراب الفسطاط وان القاهرة كما يذكره «اليوم المدينة العظمى» .

(٤) ففيما يتعلق بقياس الأهرام مثلا لايأخذ بما اتفق عليه الكتاب والمساح . بل يلاحظ أن أحد الهرمين أكبر من الآخر ويأتى بقياسات جديدة رغم أنها غير دقيقة . فطول الهرم الأكبر ٣٦٦ خطوة من الركن إلى الركن (ص ٥٣) . وكذلك الحال بالنسبة لمسجد اخميم إذ يعطى مقاييسه وعدد عمده إلى جانب وصفها (ص ٦١) . ويحسن الاشارة هنا إلى عبد اللطيف البغدادى الذى كان يزور مصر قريب هذا الوقت فهو يحسب ارتفاع عمود الهرم بـ ٢٠٧ ذراعا وطول كل ضلع من مثلثات سطحه بـ ٤٦٠ ذراعا ذراعا (Abdollatiphi , Historiae Aegypti , Londini , 1800 — نص عربى وترجمة فرنسية بمعرفة J. White, S. T. P.) ص ٩٤ ؛ انظر هامش رقم ٥٠ .

أبى الثناء فى زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص ، فى حجرة كبيرة على باب الفندق . وهو يزور القرافة ، وهى الجبانة التى ينعتها بأنها إحدى العجائب حيث الروضات (المقابر) البديعة ومشهد ذى النون المصرى [1] ، والتى كانت غاصة بالمساجد والسقايات الحسنة : كما كانت موضع خلوة وملجأ للعباد وسوقا لطلاب الآخرة كما يقول المقدسى[2] ، ويبيت فيها تبركا . ثم هو يزور بعد ذلك مساجد القاهرة مثل مسجد الحسين ، وجامع ابن طولون الذى كان مأوى الغرباء من المغاربة حيث تجرى عليهم الأرزاق . ويلاحظ أن الجماعة المغربية بالقاهرة تتمتع بامتيازات خاصة إذ كانت تحكم نفسها بنفسها باذن السلطان (صلاح الدين)[3]. وهو يصف المارستان ويزور القلعة ويشاهد أعمال الحفر ونشر الرخام وإنشاء السور التى يقوم بها أعداد لاتحصى من أسرى الروم [4] .

أما عن المجتمع المصرى فالظاهر أن ابن جبير لم يرتح إليه كثيرا . فهو مغرق لم يعتد التنظيم الحركى والإدارى الدقيق فى مصر كما يصفه[5] ، ولا أنواع الضرائب التى يقومها بالعملة المصرية والمؤمنية (الموحدية) عملة بلاده [6] . وهو يتألم لذلك ويتضرر من التفتيش الجمركى ويعتبره نوعا من التجسس : ويرجو لأهل عيذاب — وهى من أحفل مراسى الدنيا — من حيث عبر البحر الأحمر إلى الحجاز « حسبة يكون السيف دونها » ، وينصح من يمكنه ألا يراها أن يكون طريقه كله على الشام [7] . وبصفته موحديا متعصبا لمذهبه يرى أنه « لا إسلام إلا ببلاد المغرب وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وفرق ضالة وشيع » . كما إنه لا عدل ولا حق ولا دين إلا عند الموحدين [8] . وهو يرى

(١) ابن جبير ، ص ٤٦ . عن ذى النون المصرى انظر هامش رقم ٢ ص ١٠٢ .
(٢) المقدسى ، احسن التقسيم ، ص ٢٠٩ .
(٣) ابن جبير ، ص ٥٢ .
(٤) نفس المرجع ، ص ٥١ .
(٥) نفس المرجع ، ص ٣٩ .
(٦) ابن جبير ، ص ٥٥ .
(٧) ابن جبير ، ص ٧١ .
(٨) نفس المصدر ، ص ٧٨ .

أن كل الدلائل تبشر باستيلاء الموحدين على مصر وأن أهل البلاد يتمنون ذلك ويستعدون للحادث السعيد[1].

ونعتقد أن ذم أهل مصر — إلى جانب فضائلها — أصبح موضوعا تقليديا هو الآخر . بدأه الجاحظ ونقل عنه المتأخرون عندما قال : « أهل مصر أعقل الناس صغارا وأحمقهم كبارا » . وان أبا دلامة جاء إلى مصر فلما رجع إلى العراق سئل عنها فقال : « ثلثها كلاب وثلثها تراب وثلثها دواب فقيل له فأين الناس قال فى الثلث الأول »[2] . وأورد المقدسى أن مشايخهم لا يتورعون عن شرب الخمر ولا نساؤهم عن الفجور : « للمرأة زوجان . . مع سمرة وقبح لسان »[3] . فإذا أضفنا الى ذلك تعصب المغاربة لم ندهش عندما نرى العبدرى ، بعد مائة عام تقريبا (٦٨٨ / ١٢٨٩) ، على عهد بنى مرين والحفصيين خلفاء الموحدين ، يبالغ فى ذم أهل مصر ويذكر بما قاساه ابن جبير بالاسكندرية[4] ، ويخص القاهرة وأهلها بهجائه . فالقاهرة كما رآها : « مدينة كبيرة القطر وساكنها يحاكى عدد الرمل وهى مع ذلك تصغر عن أن يسطر ذكرها فى سطر .

ان نظرت إلى صورتها ذكرت قول القائل :

بغاث الطير أطولها رقابا ولم تطل البزاة ولا الصقور

وإن تأولت معناها ذكرت قوله :

وقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير

وإن تأملت إفراط عمارتها ذكرت قوله :

خشاش الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلال نزور »

ثم يستطرد قائلا : « وحسبها شرا أنها جرين لحثالة العباد ووعاء لنفاة البلاد ... سم الغش ممزوج فى عسل النحل . خرجت عمارتها عن الحد المألوف وزادت

(١) نفس المصدر ، ص ٧٩ .

(٢) انظر البكرى ، المخطوط ، ص ١١ ؛ كتاب الاستبصار ، المخطوط ، ص ١ — ١٧ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ب — ٦٨ .

(٣) المقدسى ، ص ٢٠٠ .

(٤) العبدرى ، المخطوط ، ص ١ — ٥١ .

كثيرا على القدر المعروف . أما بغضهم للغريب وتمالؤهم على ذلك فأمر لا يحيط به علما إلا من عاينه . ما رأيت بالمغرب الأقصى والأندلس على شكاسة أخلاقهم[1]».

وباعتباره سنيا متعصبا لمذهبه يقول : « وحق لمدينة وضع أساسها عبد الزنادقة غلام بن عبيد — لعنهم الله — أن تجمع أخلاق العبيد وأحوال الزنادقة » . « قل ما ترى من أهلها رجلا صافي اللون إلا كان من غيرها »[2].

بعد ذلك يورد أنه رغم ماذكر « فقد كاد المغاربة يليفون على أهل البلاد بكثير لطيب الأرض وسعتها وكثرة أرزاقها » . ويحتج بما قاله ابن جبير منذ قرن من أنه « على لسان الكبير والصغير أن مغربيا يملكهم »[3].

الى جانب هذا يحدد العبدرى مكان نزوله بالمدرسة الكاملية ، ويعدد المزارات . وفيما عدا ذلك ينقل ما كتبه البكرى وما سبق أن نقله صاحب الاستبصار عن النيل والأهرام[4] . وهو يحاول أن يصحح معلومات البكرى وينقدها وخاصة ما يتعلق منها بالمغرب ناسيا حساب الزمن وتغير الظروف .

وبعد حوالى ٥٠ عاما أى فى سنة ٧٣٦ / ١٣٣٥ قام خالد بن عيسى البلوى الأندلسى برحلته الحجازية مخترقا المغرب حتى تونس ومنها ركب البحر إلى مصر . والبلوى فى القاهرة يعطينا تفصيلات مطولة أكثر من سابقيه عن المبانى والأسواق والمساجد والمدارس والمرابع والمصانع . كما يمدنا بإحصاءات توصل إلى نقلها عن المسؤلين : فالمراكب الموجودة فى النيل ١٠٠ ألف[5] ، والجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء ٢٠٠ ألف جمل كل يوم إلى جانب ٦٠ ألفا من دكاكين

(١) العبدرى ، المخطوط ، ص ب ٦٧ ، ا — ٦٨ .

(٢) نفسه ، ص ب — ٦٨ .

(٣) نفسه ، ص ب — ٧٩ ، ا — ٨٠ ؛ قارن ابن جبير ، ص ٧٩ . هذه الفصول التى كتبت فى ذم مصر أصبحت تقليدية حتى ان الكتاب المصريين سيوردونها أيضا فى موضوعاتهم . انظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٥٠ وهو يضيف اليها ما قاله أستاذه عبد الرحمن بن خلدون المغربى كذلك من أن أهل مصر كأنهم فرغوا من الحساب .

(٤) العبدرى ، المخطوط ، ص ا — ٧٩ وتابع . قارن البكرى ، المخطوط ، ص ١٢ وتابع ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ا — ١٥ ؛ ا — ٢٠ وتابع ، وهو يصرف أن البكرى ينقل هذه المعلومات من المسعودى ؛ انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٥) نفسه ، ص ا — ٢٤ .

السقائين داخل المدينة [1]. وهو ينزل « بقرب الجامع الأعظم المشهور جامع ابن طولون » [2] ، ويتردد على جامع عمرو ويشاهد فوق المحراب كتابة هذا نصها : « أمر بتجديده الملك الزاهر الناصر المجاهد صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف وفقه الله لطاعته سنة ٥٨٠ » [3]. وهو يسجل زيارته لمشهد الحسين ويبدى استغرابه لشدة الزحام ، ومشهد السيدة نفيسة ومشهد السيدة رقية وتربة زيد بن الحسين خارج القاهرة [4] . أما عن القرافة التى أصبحت من الأماكن المشهورة بمصر « فهى بلدة كبيرة منفردة بذاتها مستقلة بأسواقها ومساجدها ، بها قبور النبيين ومشهد الامام الشافعى وبجواره مدرسة عظيمة [5] . ويثير المارستان إعجاب البلوى . ولا يضارع وصفه له إلا وصف عبد الواحد المراكشى سنة ٦٢١ / ١٢٢٤ لمارستان مراكش عاصمة الموحدين [6] . إذ يقول البلوى : « ولو لم يكن للقاهرة ماتذكر به إلا المارستان وحده وهو قصر عظيم من القصور الرائقة حسنا وجمالا واتساعا ؛ لم يعهد مثله لقطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا أكمل انتهاء فى الحسن »[7]. والمارستان يستقبل ٤٠٠٠ مريض فى اليوم وكل حاجات المرضى متوفرة فيه من الأشربة والأكحال والضأن واللبوس . ويشرف عليه الأطباء الماهرون والنظار والخدام والمتصرفون . ويختم البلوى كلامه عن المارستان قائلا : « ما وقعت عينى على مثله ولا سمعت أذنى بشبهه وشكله »[8].

وأخيرا يعدد من لقيه المشايخ ويفرد لذلك صفحات من رحلته الحجازية التى يسميها « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق [9]» وهى مهمة بالنسبة لدراسة

(١) العبدرى ، المخطوط ، ص ب — ٣٤ .
(٢) نفسه ، ص ا — ٣٣ .
(٣) نفسه ، ص ا — ٣٦ .
(٤) نفسه ، ص ا — ٣٦ ، ب ٣٧ .
(٥) نفسه ، ص ب — ٣٦ ، ا ٣٧ .
(٦) عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، طبعة دوزى ، ليدن ١٨٤٧ ، ص ٢٠٧ .
(٧) العبدرى ، المخطوط ، ص ا — ٣٤ .
(٨) نفسه ، ص ا — ٣٥ .
(٩) نفسه ، ص ا — ٩ .

الحياة العلمية والحركة الفكرية فى هذا العصر . أما عن موضوعات العجائب مثل الهرم والنيل فهو يذكرها دون اطناب أو تطويل على عكس مانقله عن الاسكندرية كما سنرى .

والاسكندرية باسمها العظيم يغلب ماضيها على حاضرها وتستحوذ عجائبها على اهتمام الكتاب . بناها الاسكندر المقدونى فى موضع به آثار بنيان وعمد لملوك عاد . فالاسكندرية إذن هى ارم ذات العماد المذكورة فى القرآن [1]. وجلب لها الرخام وأنواع المرمر والأحجار من صقلية وأفريقية وجزر البحر المتوسط . وبناها طبقات تحتها قناطر مقنطرة عليها دور المدينة ، يسير تحتها الفارس ويده رمح لايضيق ..[2] . ونظراً لبياض الرخام ظل أهلها ٧٠ سنة يمشون بالخرق السود خشية أن تذهب أبصارهم ، وما أسرج فيها سراج بليل من ضوئها .

وإذا ذكرت الاسكندرية فلا بد من ذكر المنار ، بل ربما ذكرت المنارة وأهملت المدينة [3]. فهى من أغرب عجائب العالم ليس على قرار الأرض مثلها بنيانا ولا أدق عقدا ، مبنية بحجارة الكذان المشدودة بالرصاص ، راسية فى البحر على سرطان من زجاج [4] . وهى أعلى بنيان على وجه الأرض ، بلغ من عظم ارتفاعها ، أن بعضهم رمى بحجر من أعلاها عند غروب الشمس وله رفيق ينتظره فى أسفله فما وصل إليه إلا بعد مغيب الشفق »[5]. والمنارة تحمل فى أعلاها المرآة الغريبة ، إحدى عجائب الدنيا الأربع ، التى يرى الجالس تحتها مدينة القسطنطينية [6] والتى يشاهد فيها كل مركب أقلع من سواحل البحر كلها [7].

(١) ابن الفقيه ، ص ٦٩ ؛ أنظر المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٢٠ — ٤٢١ الذى ينقله البكرى ، المخطوط ، ص٦٨ ؛ وكتاب الاستبصار ، المخطوط ، ص ب — ٤٥ بتفصيلات مطولة غير موجودة فيما لدينا من كتب من سبقوه .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٢٣ ، ٤٢٩ .

(٣) ابن خرداذبه ، ص ١٤٢ — ١٤٥ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٢٨ — ٣٣٩ ؛ ابن رسته ، ص ١١٧ — ١١٨ ؛ المسعودى ، التنبيه ، ص ٤٧ ؛ المقدسى ، ص ١٩٦ ، ٢١١ ؛ ابن حوقل ص ١٠٠ ؛ الادريسى ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ الخ ؛ انظر جمال الدين الشيال ، الأطلس التاريخى (الاسكندرية) ص ١٩٨ وهامش ٢ .

(٤) الادريسى ، ص ١٣٩ .

(٥) كتاب الجغرافية المخطوط ، ص ب — ٣٩ .

(٦) ابن خرداذبه ، ص ١١٥ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٢ .

(٧) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣٤ ، ٤٣٩ ؛ والتنبيه ، ص ٤٧ ؛ المقدسى ، ص ٢١١ .

إلى جانب ذلك كانت تحمل فى قمتها تمثالا يشير بسبابته نحو الشمس أينما كانت ، وتمثالا آخر يشير فى البحر إذا قرب العدو ويطلق دويا هائلا ، ولهذا السبب احتال ملك الروم حتى تمكن من تحطيم المرآة وهدم رأس المنار على عهد الوليد ابن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ / ٧٠٥ — ٧١٥) [١]. كل ذلك دعا إلى أن تكون من بناء الفراعنة أو من بناء الذى بنى رومية والاسكندرية والأهرام ، بالرغم من معرفة بانيها وهو أحد البطالمة [٢].

هذه المعلومات التقليدية ظهرت منذ نشأة علم الجغرافية فدونها ابن خرداذبه واليعقوبى وابن رسته وابن الفقيه . ثم أتى المسعودى وتوسع فيها توسعاً كبيراً فى كتبه وعنه أخذ المتأخرون وخاصة البكرى وصاحب الاستبصار اللذين حفظا كثيراً مما ضاع مع كتبه مثل أخبار الزمان والكتاب الأوسط [٣] ورتباها ترتيبا منظما يجعلها سهلة التناول .

هذا عن الأساطير الشعبية ، أما الحقائق ذات القيمة التاريخية والأثرية فهى ماورد فى وصف برج الاسكندرية العظيم . بدأ الكتاب الأول بذكر ميزاته العامة دون وصف دقيق . فهم يعرفون أنه يقع على فوهة الميناء الأعظم [٤] ويمتاز بارتفاعه الكبير وبأنه ليس له درج بل يصعد إلى أعلاه فى منحدر دائرى (مثل منارة سر من رأى) يستطيع الفرسان صعوده على ظهور الخيل ، ويحتوى على أكثر من ٣٠٠ بيت [٥]. وهم لايتفقون على تقدير ارتفاعه : فاليعقوبى يورد أن ارتفاعه ١٧٥ ذراعا [٦] ، وهو تبعا لابن رسته ٣٠٠ ذراع [٧] .

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ب — ٤٢ ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ا — ٤٠ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣٢ ؛ ابن حوقل ، ص ١٠٠ .

(٣) انظر المسعودى مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٧١ ، ٤٣٩ .

(٤) اليعقوبى ، ص ٣٣٨ .

(٥) ابن خرداذبه ، ص ١٤٥ .

(٦) كتاب البلدان ، ص ٣٣٨ .

(٧) كتاب الاعلاق النفيسة ، ص ١١٨ ، وأخذ عنه ابن حوقل ، ص ١٠٠ والأدريسى ، ص ١٣٩ (٣٠٠ ذراع = ١٠٠ قامة) .

ويرجع الفضل إلى المسعودى الذى يصفه وصفاً دقيقاً . فطوله عندما يكتب المسعودى بعد سنة ٣٤٤/ ٩٤٥ يبلغ ٣٣٠ ذراعا على وجه التقريب ، وذلك بعد أن كان ٤٠٠ ذراع قديما . والمنارة تنقسم الى ٣ طبقات : الأولى وهى السفلى مربعة مبنية بالحجارة يبلغ طولها نحو ١١٠ ذراعا ، والوسطى مثمنة الشكل مبنية بالآجر والجص طولها نحو ٦٠ ذراعا ومحيطها أقل من محيط السفلى فتترك « فضاء يدور فيه الانسان » . وأخيراً الطبقة العليا وهى مدورة الشكل ومحيطها أقل من محيط الوسطى أيضا[1] . ويعطى المسعودى بعض المعلومات الخاصة بما أحدثت الزلازل والجور من الهدم فى المنار وبعض الترميمات التى تمت فيه . هذه المعلومات نقلها البكرى وأخذها عنه صاحب الاستبصار بتفصيلاتها المطولة كما كتبها المسعودى فى تصانيفه المفقودة[2].

وفى القمة مسجد — ينسب إلى سليمان — يرابط فيه مطوعة المصريين وغيرهم فى الصيف[3] . وكان المنارة عيد سنوى يحتفل به أهل الاسكندرية يسمى « بخميس العدس » ويصعد الناس فيه إلى أعلاها من الصباح إلى نصف النهار[4] .

وابن جبير الذى شاهد المنار وصعد إلى أعلاه حيث صلى فى مسجده المبارك إكتفى بقياس أحد جوانبه الأربعة ووجد فيه ٥٠ باعا . أما عن طوله فذكر أنه يشاهد على أزيد من ٧٠ ميلا ويأخذ بالرواية التى تقول بأن طوله أزيد من ١٥٠ قامة (٤٥٠ ذراعا)[5]. فى هذا الوقت تقريبا قام عبد اللطيف البغدادى باعطاء مقاسات علمية دقيقة للغاية : فارتفاع الطابق الأول المربع هو ١٢١ ذراعا ، والثانى المثمن ٨١٫٥ ذراعا ، والثالث المدور ٣١٫٥ ، وارتفاع المسجد ١٠ أذرع أى ان طول المنارة ٢٣٤ ذراعا وباضافة المسجد ٢٤٤ ذراعا[6].

(١) التنبيه ، ص ٤٧ .

(٢) انظر البكرى ، المخطوط ، ص ٦٠ — ٦١ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ١ — ٤٣ وتابع ؛ قارن الادريسى ، ص ١٤٠ .

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٠ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ١ — ٤٤ ؛ انظر المقريزى الخطط ، ص ٢٦٦ ، ٤٩٥ .

(٥) ابن جبير ، ص ٤١ .

(٦) عبد اللطيف ، ص ١١٦ ولكنه يحسب أن طولها ٢٣٣ ذراعا بدلا من ٢٣٤ .

أما العبدرى الذى دخل المنار وتأمله وصعد إلى أعلاه بعد جهد فوصفه على أنه « لايظهر له من خارج فرط علو ، وسعته ١٤٠ شبرا من ركن إلى ركن . وهو خارج المدينة على أزيد من ٣ أميال وعلى تل مرتفع بشمالها وبينهما بر متصل بسورها ، وقد أحاط به البحر شرقا وغربا حتى تآكل حجره من الناحيتين فدعم منها بالبناء . وباب المنارة مرتفع عن الأرض نحو ٤ قامات » . وفى الداخل رأى عدة بيوت مغلقة . وقاس الممر فيه فوجده ٦ أشبار وغلظ الحائط ١٠ أشبار من أعلاه . أما المسجد فهو عبارة عن « قبة مليحة لها محراب للصلاة »[١]. وينقل ابن بطوطة مقاييس العبدرى هذه [٢] ، وعلى عكس العبدرى الذى ترك ما كتبه الناس قبله عن المنار والاسكندرية ولم يدون عنهما إلا مشاهداته الخاصة ، فإن البلوى يورد فى رحلته المعلومات التقليدية عن عجائب المدينة القديمة والمنار وينقل مقاييس ابن جبير[٣] .

ويأتى بعد المنار عمود السوارى الشهير الذى ينسب إلى سليمان [٤] وتحيط به سوار كانت تحمل قبة لفرعون أو مبان للفلاسفة[٥] وربما كانت بقايا قصر الاسكندرية العظيم[٦]. ثم هناك الملعب والسلتان [٧] .

هذا ماقيل فى الاسكندرية القديمة ، أما المعاصرة فالمعلومات عنها معدومة أو نادرة قليلة — كما هى العادة — وخاصة عند الجغرافيين الأوائل . فاليعقوبى يكتفى بذكر مربوط إحدى كورها ويصفها بأنها عامرة لها كروم وشجر ولها ثمار موصوفة ومنها تجلب الفواكه إلى الاسكندرية [٨]. والمقدسى يذكر أنها قصبة

(١) العبدرى ، المخطوط ، ص ب — ٤٩ ، ا — ٥٠ .
(٢) ابن بطوطة ، طبعة باريز ، ١٨٥٣ ، ص ٢٩ .
(٣) البلوى ، المخطوط ، ص ا — ٢٨ .
(٤) ابن رسته ، ص ١١٧ .
(٥) ابن رسته ، ص١١٧ ؛ ابن الفقيه ، ص٧٣ ؛ عبد اللطيف ، ص ١١٠ ؛ ابن جبير ، ص٤٠ .
(٦) البكرى ، المخطوط ، ص ٢٦١ ؛ الاستبصار ، المخطوط ، ص ب — ٤٤ .
(٧) الهامش السابق ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٨ ؛ الادريسى ، ص ١٤٠ ؛ انظر جمال الدين الشيال الاطلس التاريخى (الاسكندرية) ص ١١٩٥ والهوامش .
(٨) اليعقوبى ، ص ٣٣٩ ؛ انظر البكرى ، المخطوط ، ص ٦٨ ؛ الاستبصار ، ص ب — ٤٥ (شجرة بطول أعمار أهلها) .

نفيسة على بحر الروم ، عليها حصن منيع من جهة الغرب . وهى شامية الهواء ، وبلد شريف كثير الصالحين والمتعبدين ، شرب أهلها من النيل الذى يدخل عليهم أيام الزيادة فى قناة فيملأ صهاريجهم[1] . أما ابن حوقل فيكتفى بأن بها سمكة تعرف بالعروس حسنة المنظر لذيذة الطعم[2]. والبكرى يذكر فيما ينقله الاحتفال بعيد المنار ، ويضيف صاحب الاستبصار الغارة الصقلية على الاسكندرية سنة ٥٧١/١١٧٥ على عهد صلاح الدين ويتبعها بانتصار صلاح الدين على الصليبيين فى الشام وارساله ابن منقذ إلى المغرب مبعوثا لدى المنصور الموحدى[3]. وعبد اللطيف العالم ، معاصر ابن جبير ، يتكلم عن سمكة السرب بالاسكندرية التى تسبب لآكلها أحلاما مفزعة ، ثم الترسة التى شاهدها هناك يقطع لحمها ويباع كلحم البقر[4].

وكما هو الحال بالنسبة للقاهرة يرجع الفضل لابن جبير وتابعيه فى تصوير الاسكندرية كما شاهدوها . فابن جبير يصف الادارة والتفتيش الجمركى وصفا دقيقا للغاية : إذ يطلع أمناء السلطات إلى المركب لتقييد كل ما جلب فيها وتدوين أسماء وصفات وبلاد جميع الركاب وتحصيل الضرائب المفروضة . ويحدد كعادته مكان نزوله بالمدينة بفندق الصفار بمقربة من الصبانة . ويعجب بالمدينة الكبيرة ويقول « ماشاهدت بلداً أوسع منه ولا أعلى مبنى » . وهو يشيد باحتفال الأسواق وتصرف الناس فى البلد بالليل كتصرفهم فيه بالنهار . ويسجل زياراته المدينة وما شاهدوه من المنار والسوارى والمدارس والمحارس أى رباطات المجاهدين من أهل الطلب والتعبد . ويتكلم عن فقراء المغاربة بالمدينة وكيف كانوا محل رعاية السلطان الذى يبذل لكل منهم خبزتين يوميا وهم يبلغون أكثر من ألف شخص[5].

ويصل العبدرى عن طريق برقة الى الاسكندرية فيراها « مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الاشراق اللامع والطلاقة ، الآخذة من الكفر وأهله بالمخنق » .

(١) المقدسى ، ص ١٩٦ .
(٢) ابن حوقل ، ص ١٣٠ .
(٣) الاستبصار ، المخطوط ، ص ب ٤٩ .
(٤) عبد اللطيف ، ص ٨٤ .
(٥) ابن جبير ، ص ٣٩ وتابع .

وهى « مدينة فسيحة الميدان صحيحة الأركان مليحة البنيان تسفر عن محيا جميل »[1]. ويعجب بأبواب سورها الحصينة فيقول فيها : « من جملة ابداعها واغرابها مارأيت من اتقان أبوابها ، وذلك أن عضايدها وعتبها مع افراط طول الأبواب كلها من حجارة منحوتة يتعجب من حسنها ، ومصاريعها ملبسة بالحديد[2] ». وهو يصف المنار وصفاً واقعياً دقيقاً كما ذكرنا . أما عن أهل الاسكندرية فقد كان حظهم منه مثل حظ سكان القاهرة. إذ هو بعد المديح يستدرك فيقول : « بيد أنها بلد زادت صورته على معناه فهو كجسم حسن لاروح فيه ، أكثر أهلها رعاع ضرر بلا انتفاع مع سوء أخلاق . تواطئوا على تطفيف المكيال والميزان ، فإن عاملهم غريب لم يلق منهم إلا مايريب ، يتخذونه هدفا لكل منهم فيه سهم مصيب ». ويستطرد : « ومن الأمر المستغرب والحال الذى أفصح عن قلة دينهم وأعرب ، أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج ، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج »[3] . ثم هو يظن أن ذاك أمراً أحدثوه ولكنه سمع حكاية اقتضت « أن لهم فى هذه الفضائح سلفا غير صالح ». ويستشهد بابن جبير ويقص قصة تتعلق بحج هذا الأخير وكيف ضايقه التفتيش فى الديوان مما دعاه إلى نظم قصيدة ينصح فيها « أمير المسلمين صلاح الدين »[4] . وهو إلى جانب ذلك يعطينا فكرة عن الحياة العلمية بالمدينة فى هذا الوقت ويقابل العلماء ، ويذكر بعض الموضوعات التى كانت محل مناقشة وفتوى منها : كيف سئل فقهاء الثغر هل لضرب الصبيان حد فاختلفوا فى تحديده وأجاب أحدهم قال الضرب للصبيان كالغيث للنبات ».

ويقلد البلوى ابن جبير فيبدأ حديثه المسجوع بظهور منار الاسكندرية من البحر . وبعد أن يصل المركب إلى المرسى بقرب المنارة يقول : « فلما وصلنا الرمل وسلمنا على الاخوان احتطنا بالشرط والأعوان وحملنا بأجمعنا إلى الديوان .

(١) البدرى ، المخطوط ، ص ا — ٤٩ .

(٢) البدرى ، المخطوط ، ص ب — ٤٩ .

(٣) البدرى ، المخطوط ، ص ا — ٥٠ ، ب — ٥٠ .

(٤) البدرى ، المخطوط ، ص ا — ٥ ، ويذكر البدرى أن ابن جبير نظم قصيدته هذه عندما حج سنة ٦١٠ وهذا خطأ لأن صلاح الدين كان قد مات قبل هذا التاريخ ٥٨٩/١١٩٣ .

وهناك شاهدنا الحساب ورأينا العذاب وملئوا منا البيوت والرحاب . وفتشت الأوساط وعم الزحام والاختلاط وكثر الهياط والمياط ، حتى خرج المخزون والموزون . وبرز المعكوم والمختوم وعند الله تجتمع الخصوم . فأخذ من كل عشرة دنانير دينارين ظلما وعدوانا . فاستشعرت الأسف ونسيت كل رزء سلف »[1] . وأخيرا بعد أن ينقل المعلومات التقليدية عن الاسكندرية كما أشرنا يخصص فصلا عن علمائها ويخرج منها إلى القاهرة فى ٣ رجب ٧٣٧ / ٥ فبراير ١٣٣٧ وبذلك تنتهى مجموعة ابن جبير .

تلك صورة مصر كما رسمها الجغرافيون العرب بصفة عامة ، وكما ظهرت عند الجغرافيين المغاربة فى القرنين الـ ٦ والـ ٧ الهجريين (١٢ و ١٣) وما حولها ، أى فى الفترة التى ازدهر فيها علم الجغرافية عند المغاربة بظهور أعلامهم فى هذا الميدان .

ومن تلك الصورة يمكن أن نلاحظ أنه رغم تطور علم الجغرافية وتخلصه من التاريخ الى حد كبير وتفرعه إلى فروعه المختلفة وتخصص كل فرع منها فى ناحية معينة واستمرار هذا التقدم حتى القرن الـ ٦ / ١٢ — كما يبين ذلك بلاشير — فإن الجغرافية الوصفية بصفة عامة لم تستطع — إلى حد كبير — أن تساير هذا التطور فيما يتعلق بمصر . إذ ستظل مصر دائما موضوع علم العجائب دون منازع . وهذا سيظل دائما وثيق الصلة بعلم التاريخ .

إلى جانب ذلك لما كانت مصر امتداداً طبيعيا لشمال افريقية والمغرب فإنه يرجع الفضل إلى الجغرافيين المغاربة فى أن تكون مصر موضوعا مهما لجغرافية المسالك والممالك النموذجية التى تخصصت فى وصف المغرب وذلك بفضل البكرى ثم الادريسى ثم صاحب كتاب الاستبصار . ومع أن هؤلاء استمدوا معلوماتهم فى معظم الأحيان من مصادر مشرقية إلا أن كثيرا من هذه المعلومات لم يصل إلينا إلا عن طريقهم .

---

(١) البلوى ، الفطوط ، ص ب — ٢٧ .

وأخيراً كان هذا الارتباط الجغرافى السابق بين كل شمال افريقية سببا فى أن تكون مصر — وهى محطة تفرع الطرق الى أنحاء المشرق — موضوعا مهما من موضوعات جغرافية الرحلة إلى الحجاز والأماكن المقدسة التى ابتكرها المغاربة فى القرن الـ ٦/١٢ والتى احتكروها فيما بعد فقلد بعضهم بعضا . وهذا النوع يمتاز — كما رأينا — على غيره من الأنواع الأخرى بواقعيته ؛ فالى جانب المعلومات التقليدية وجدت معلومات مستقاة مباشرة عن المؤلف الذى عاش وسط الأحداث .

هكذا قام المغرب بدوره فى اكمال المكتبة الجغرافية العربية وأدى نصيبه فيما يختص بمصر .